بين العقاد والجبلاوي

كان بين العقاد والشاعر طاهر الجبلاوي (١٨٩٨- ١٩٧٩م) صداقة حميمة، وعلاقة أخوية وثيقة ، تجلت أصداؤها في دواوين العقاد ، وفي مذكرات طاهر الجبلاوي التي نشرها بعنوان (ذكرياتي مع عباس العقاد) . والتي ذيّلها بصور لمجموعة من الرسائل الشخصية التي كان العقاد أرسلها إليه في المحافظات المختلفة التي كان الجبلاوي يُنقل إليها من حين لآخر في عمله الحكومي وهي (الفيوم ، وأسيوط ، وسوهاج ، وقنا) . . ويبدو أنه كان مغضوباً عليه من رؤسائه إذ كان النقل إلى الصعيد في تلك السنين عقوبة من العقوبات التي ما كان أكثر ما توقع الموظفين بعامة والمدرسين بخاصة ، وقد أشار إلى هذا الشاعر حفني ناصف في قصيدته الشهيرة :

قـــالوا : نُقلـــتَ إلى قنـــا يـــا مرحبـــاً بقنـــا وإســـنا

وعارضها الشاعر المعاصر عبد المجيد طه حين نقلوه ، إلى مدينة طما وقرية مشطا بمحافظة سوهاج فقال :

قـــالوا : نُقلـــتَ إلى طـــما يـــا مرحبـــاً بطـــما ومشـــطا

قـــالوا : أكلـــتَ المـــشّ قلـــ ـــتُ وحبـــذا بـــالمشّ لهطـــا

ويبدو أن طاهر الجبلاوي كان قد طلب إلى العقاد التوسط له لدى كبار موظفي الوزارة ليعيدوه إلى القاهرة فينعم بمحافلها الأدبية وندواتها الثقافية وأمسياتها الشعرية التي عرفته شاعراً فحلاً في أواسط هذا القرن .

والذي يؤكد أنه طلب إلى العقاد التوسط تلك الأبيات التي أرسلها إليه وهو في أسيوط يقول فيها :

هل أنصفوا الجبلاوي ... وهْو بأسيوط ثاوي ؟
أعيش بين أناس ... هم آية في المساوي
مُصبَّحاً ومُمَسَّي ... منهم بذئب عاوي
واللؤم والشر فيهم ... أضعاف ما قال راوي
أنجد أخاك فإني ... على شفير هاوي

ويرد عليه العقاد قائلاً إنه كلم له قوماً في شأن نقله منهم الأستاذ محمود رشيد ويبدو أنه كان صاحب مركز في الوزارة . فلم يفعلوا شيئاً . فعليه أن يصبر إذاً على ما هو فيه [وإذاً هذه تساوي في لهجة القاهرة كلمة : بقى - بفتح القاف - التي استخدمها العقاد هكذا وهم ينطقونها بأه] يقول العقاد :

كلمت في النقل قوماً ... منهم رشيد وغاوي
ومنهم مستقيم ... فيما يقول ولاوي
فما أفادوا بشيء ... إلا عريض الدعاوي
فاقعد "بَقَا" واصطليها ... في الحر والحر شاوي

وحين كان الجبلاوي في الفيوم امتدت يد أحد اللصوص فسرق حافظة نقوده ولم يترك له شيئاً ، فاستنجد بصديقه العقاد ليرسل له نقوداً . فأرسل له العقاد " شيكاً " ومعه الأبيات التالية يتهمه فيها بانه ظلم اللصوص حين ادعى أنهم سرقوه ويصفه بأنه (خيتعور) وهي كلمة عامية لا معنى لها وإن حملت سمة التهكم فيقول :

تتجنى على اللصوص من الظلم ... فيا ليتهم تجنَّوا عليكا
إن يكن ضاع ما ضاع فاعلم ... أن كفيك غالتا كفيكا
بين كأس شهية وكتاب ... عبقري تجلو به عينيكا
فتقبل شيكاتنا ، ثم حاذر ... أن تزوغ الشيكات من كفيكا
ثم هرول يا خيتعور من الفيوم ... جرياً ولو على قدميكا

وينقل الجبلاوي إلى سوهاج وينتقل طاهر الجبلاوي إلى محافظة سوهاج في الصعيد فيرسل إليه العقاد الأبيات التالية يدعوه فيها للحضور لقضاء أحد الأعياد في القاهرة . وهي في ديوانه (ما بعد البعد) الذي أصدره المرحوم الأستاذ عامر العقاد ابن شقيق العقاد بعد وفاة عمه . يقول العقاد :

في العيد منتظروكا ... فاحضر لنا يا ويكا
سوهاج أضيق من أن ... تغنيك أو تحتويكا
فالعيش فيها ضنين ... بكل ما يرضيكا
ولو أردت انتحاراً ... لما وجدت (فِنِيكَا)

[والفنيك هو نوع من الكيمياويات السامة].

ويكاد العقاد في قصيدته هذه أن ينتهج نهج الشعر الحلمنتيشي الذي يزاوج - في بنائه الفني - بين الكلمات الدارجة والكلمات الفصحى ، فهو ينجت الفعل (يقيقهر) للدلالة على من يسكن القاهرة مقابل الفعل (يسوهج) للدلالة على من يسكن سوهاج . ويستخدم كلمتي (جهركا ، وسيكا) وهما مقامان موسيقيان مختلفان كما تختلف سوهاج عن القاهرة :

ومن يقيهر خير ... ممن يسوهج ديكا

هذا يغني جهركا ... وذاك ينشد سيكا

وذا يصيح فصيحاً ... وذاك يهذي ركيكا

وجائز حين تأتي ... ألا تعود وشيكا

وذات مرة مات كلب لطاهر الجبلاوي فكتب العقاد رثاءً جميلاً في هذا الفقيد نعى فيه صديق صديقه نعياً مؤثراً ، فقد كان هو وصاحبه مع الدنيا على أتم وفاق ، وكان يتبادلان الخبرات والأدوار ، فقد يقرأ الكلب ، وقد يخرج طاهر للصيد يقول العقاد :

حزناً على كلب طاهر ... فإنه طاهر الكلاب

تشابها في خليقةٍ ... واتفقا - شيمة الصحاب

كلاهما يستفيد من ... صاحبه علمه العجاب

فكان للصيد طاهرٌ ... وكلبه الفحل "للكتاب"

ونـــــم لخطأهمـــــا عـــــلى سرٍ في الصـــوف في حجـــاب
وربـــــما عـــــيّ طـــــاهرٌ وكلبـــه حـــاضر الجـــواب
فلـــــيس يوفيـــــه حقـــــه في اكتئـــــاب وانتحـــــاب
إلا إذا بـــــــات نابحـــــــاً نـــبح المســـاعير في الخـــراب
عوْعـــوْ عَـــووْوْ - بـــلا ونـــىً ولا انقطـــاع ولا اقتضـــاب
لا تســـــألوا رحمـــــةً لـــــه قـــد رحـــم الله واســـتجاب
لعلـــــه مـــــات قانطـــــاً مـــن قلـــة الأكـــل والشـــراب
منتحـــــــراً في شـــــبابه وهكـــذا يفعـــل الشـــباب
أراحـــه المـــوت مـــن ضـــنى أنقـــذه القـــبر مـــن عـــذاب
فليحمـــــــد الله ربـــــــه مـــن جـــاع فلـــيرضى بـــالتراب

وقد حاول الفنان صلاح طاهر - وهو صديق مشترك للعقاد والجبلاوي التسرية عن الجبلاوي بعد موت كلبه ، فأهداه كلباً جديداً أطلق عليه الجبلاوي اسم (ديوجين) تيمناً باسم الفيلسوف اليوناني الكلبي (ديوجنيس) وذهب إلى صائغ فعمل له مصباحاً من الفضة علقه في رقبته . وأعد له جرة خاصة في منزله يعيش فيها مكرماً محترماً ، ولكنه كان يأبى إلا الاختلاط بكلاب الجيران ، وذات يوم تفقده الجبلاوي فلم يجده فكتب عنه يقول :

هجرتنـــــي واختفيـــــت فـــأي بيـــت قصـــدت
مـــا كـــان حظـــك منـــي أقـــل ممـــا طلبـــت

اللحـــم والخبـــز عنـــدي ... والعطـــف والـــود فـــت

وحجـــرة لـــك فيهـــا ... مـــن الرغائـــب شـــتى

وشـــاعراً فيلســـوفاً ... ملبيـــاً إن غويـــت

كـــم مـــن كتـــاب نفـــيس ... بـــلا حســـاب قطعـــت

وكـــم صـــحيفة شـــعر ... خطفتهـــا وجريـــت

فـــما ضربـــت لـــذنب ... ولا بقـــول نهـــرت

لم يبـــترد بعـــض وجـــد ... عـــلى عزيـــز خلفـــت

فقدتـــه طـــي لحـــد ... وأنـــت حيـــاً فقـــدت

وكـــان فيـــه عـــزاء ... مـــن رزئـــه لـــو أردت

فمـــن لرزأيـــي أبغـــي ... إذا مضى ـــ ومضـــيت

في كـــل حـــي تـــراني ... مســـائلاً أيـــن بنـــت

وكلـــما شـــمت كلبـــاً ... أقـــول هـــا هـــو أنـــت

وأرجـــع الـــدار عـــليّ ... أراك للـــدار عـــدت

فـــما اهتـــديت بســـعي ... ولا إليّ اهتـــديت

فيـــا ديـــوجين قـــل لي ... مـــاذا دهـــاك فغبـــت

وكلبـــة كنـــت تهـــوى ... خلفتهـــا وهجـــرت

فـــلا وداعـــاً جمـــيلاً ... ولا ســـلاماً تركـــت

فهـــل خشـــيت ضـــلالا ... مـــن الهـــوى فارتحلـــت

أم اكتويـــــــت بنـــــــار ... مـــــن الغـــــرام فهمـــــت
ســـــيان في الحـــــب هـــــذا ... وذلـــــك أني ذهبـــــت
بـــــالله قـــــل لي مـــــاذا ... بعـــــد الفـــــراق وجـــــدت
وبـــــين قـــــوم كـــــرام ... تعـــــيش كيـــــف أردت
لا يحرمونـــــك عطفـــــاً ... ورأفـــــة أن شـــــكوت
أم أنـــــت بـــــين صـــــغار ... لا يرحمـــــون وقعـــــت
موثقـــــاً في حبـــــال ... بغـــــير ذنـــــب جنيـــــت
تجـــــر في كـــــل درب ... فـــــإن عصـــــيت ضربـــــت
وصرخـــــة لـــــك تمضي ... مـــــا بيـــــنهم إن غضـــــبت
مصـــــباحك اليـــــوم ينجـــــي ... مـــــن كـــــل شر رأيـــــت
فاحملـــــه وانشـــــد صـــــديقاً ... مـــــن الأنـــــام ألفـــــت
عليـــــك منـــــي الســـــلام ... في أي دار حللـــــــــــت

فكتب إليه العقاد مواسياً في مصيبة فقد (ديوجين) الغالي قصيدة ذكّره فيها بموت كلبه السابق ، وفرار كلبه الحالي ، واستنتج من ذلك أن الجبلاوي بخيل ولولا بخله ما هجرته كلابه ، يقول العقاد :

أمســـــت كلابـــــك شـــــتى ... وأنـــــت يـــــا صـــــاح أنـــــت
كلـــــب نجـــــا وهـــــو حـــــي ... وآخـــــر فـــــر ميتـــــاً
مـــــا بـــــين تـــــارك دينـــــا ... وتـــــرك لـــــك بيتـــــاً

قـــــل لي بربـــــك مـــــاذا ... عـــلى الكـــلاب جنيـــت
حتـــــى ديـــــوجين ولى ... يـــا ســـوء مـــا قـــد صـــنعت
والله مـــــا كـــــان يـــــأبى ... لـــو صـــادف الخبـــز بحتـــا
أوجـــــدت يومـــــاً عليـــــه ... فصـــــادف الأدم زيتـــــا
زعمتـــــــه راح يهـــــــوى ... مـــن قومـــه الغـــر بنتـــاً
لا تلـــــزم الحـــــب ذنبـــــاً ... مـــــن الصـــــيام تـــــأتى
فاحمـــــل رغيفـــــاً تجـــــده ... في أي صـــــوب نظـــــرت
مصـــــباحه لـــــيس يجـــــدي ... فـــــلا تضـــــع فيـــــه وقتـــــاً
أنعـــــم بـــــه مـــــن حكـــــيم ... إلى ديـــــوجين متـــــاً
رأي الســـــــلامة حقـــــــاً ... ومـــــن رأي الحـــــق أفتـــــى

رسائل شعرية متبادلة :

وكان الجبلاوي - وهو من محافظة دمياط - يفضل أن يقضي الصيف في مصيف رأس البر فكتب إليه العقاد رسالة شعرية على عنوانه برأس البر يقول فيها

إلى الأســـــتاذ طـــــاهرٍ الجبـــــالي ... بـــــرأس الـــــبر أو بـــــرِّ الرمـــــال
ســـــلامٌ مـــــن نـــــديوتكم بمصرٍـــــ ... ومـــــا التصـــــغير إلا للجـــــلال

ثم يذكر له بعض ندوة العقاد الدائمين كالأستاذ الأديب الشاعر محمد خليفة التونسي ، والأستاذ محمد الشوربجي ، والأستاذ عبد الحي دياب ، وغيرهم ويختتم العقاد رسالته الشعرية بقوله :

وسـلِّم أنـت عنـدك يـا أخانـا عـلي الزيـات والزيـات قـالِ
" وقـالٍ " هـذه : قَـلْيٌ وقـولٌ ونظـم الشـعر في قيـل وقـال
سـلام في سـلام في سـلام وشرط الـرد يُكتـب في ارتجـال

فهو في هذه الأبيات يهدي سلامه إلى صديقهما الصحفي الأديب المحامي عبد حسن الزيات ، ويسترسل في دعابته الشعرية مستخدماً التورية في كلمة (قالٍ) فيقول أنها تحتمل أن تكون من القَلْي - بفتح القاف وسكون اللام - بمعنى إنضاج السمك في الزيت ، أن من القول ، وقد كان الجبلاوي عند حسن ظن صديقه فكتب الرد ارتجالاً من رأس البر فقال :

بعثـت إلى مـن وادي الظـلال بأبيـات مـن السـحر الحـلال
عـرائس مـن مـروج الشـعر جـاءت تـرود الفـن في شـط الخيـال
فأنسـتني المصـيف ومـا حـواه مـن الفـتن المدلـة بـالجمال
تُـذَكِّرُ بالنـديّ وزائريـه كـأني بالنـديّ عـلى اتصـال
وإن تسـأل عـن الزيـات إني أراه محـيراً في كـل حـال
عـلى الغيطـان مشـغول وأنـا لـدودة قطنـه يـدعو نـزال
وهـذا الشـعر مرتجـل فعفـواً فشرـط الـرد يكتـب بارتجـال

وقبل أن يعود الجبلاوي من مصيفه في رأس البر يكتب إليه العقاد رسالة شعرية أخرى تفيض عذوبة وخفة ظل ، فهو يتخيل ما يعيش فيه في مصيفه ذاك

النعيم والتمتع بملذات الحياة ، ويذكِّره بأن يأتي إليهم حين يعود بالحلوى الدمياطي الشهيرة باسم (المشبِّك) فيقول العقاد :

سلام في سلام في سلام ... إلى الطيهور يقرأ كل عام

برأس البر مصطافاً وأنعم ... برأس البر في طيب المقام

يطيل بها الصلاة مع الصيام ... ويسكن في محاريب الإمام

ويرتاد الشواطئ بين عذب ... وملح زاخر الأمواج طام

ويركباً طفطفاً ويخاف جداً ... من القفز السريع إلى الترام

ويأكل لحم طير يشتهيه ... مع السمك المبطرخ في البرام

ولا ينسى الفطائر ذات حشو ... أحب إليه من حشو الكلام

وقل ما شئت في عشرين صنفاً ... من الحلوى تجئ مع الطعام

وحين نرى المشبك في يديه ... يكون لقاؤه مسك الختام

ويرد الجبلاوي على العقاد ملتزماً الوزن والقافية نفسيهما كما هو الحال في أية معارضة شعرية ، ويؤكد أنه سيحمل (المشبِّك) إلى أصحابه في طريق عودته إلى القاهرة ، يقول الجبلاوي مجيباً العقاد :

وهذا فضل أستاذ كريم ... فقل ما شئت في فضل الكرام

يجود بها فرائد كالدراري ... تألق في دياجير الظلام

و هأنذا أغادر رأس بري ... إلى رأس من العلياء سام

تجمل بالنهى وازداد حباً ... إلينا بالمودة والوئام

وفصل القول أني عدت تواً ... وفي يدي المشبك في سلام

الجبلاوي في أسيوط :

ويبدو أن حظ طاهر الجبلاوي مع الصعيد كان سيئاً للغاية فبعد أن سرقوه في الفيوم ، وبعد أن نقلوه إلى سوهاج ، نقلوه إلى أسيوط كما أشرنا سابقا فأرسل أبياتاً لصديقه العقاد يستعيث به ليتوسط له في النقل إلى القاهرة ، ويصف له أهل أسيوط بأنهم آية في سوء العشرة فيقول الجبلاوي :

هل أنصفوا الجبلاوي ... وهو بأسيوط ثاوي ؟

أعيش بين أناس ... هم آية في المساوي

مُصبَّحاً ومُمَسَّي ... منهم بذئب عاوي

واللؤم والشر فيهم ... أضعاف ما قال راوي

أنجد أخاك فإني ... على شفير هاوي

ويبدو أن الجبلاوي قد هفا هفوة مما يكون بين الأصدقاء ، وعوقب فيها من العقاد وصحبه ، فاعترف بخطئه ووصف نفسه بأنه (وِحِش) - بكسر الواو والحاء وهي كلمة عامية معناها : غير لائق - فكتب إليه العقاد وهو في أسيوط سنة ١٩٢٩م يقول :

قلت بها معترفاً ... وكنت فيها منصفاً

فأنت في الوحاشة ... بيك وقيل باشته

وأنت في الملاهي ... أعبط خلق الله

ومرة يكتب العقاد إلى الجبلاوي وهو في أسيوط يتنبأ له بالنقل بعد أسيوط إلى قنا وربما ينقل بعدها إلى قرية (دراو) المتاخمة لمدينة أسوان في أقصى الجنوب ، ويؤيسه من التفكير في العودة إلى مصر - أي القاهرة - فيقول :

اليوم تدعى السيوطي ... وسوف تدعى القناوي
وقد يجيئك يوم ... فيه تسمى الدراوي
ما أنت والله آت ... لمصر يا جبلاوي

الجبلاوي في الفيوم :

أما المدة التي قضاها الجبلاوي في الفيوم فقد شهدت كثيراً من المراسلات بينه وبين العقاد ، وقد يرجع ذلك إلى أن الجبلاوي كان ينتهز فرصة عطلة الجمعة وقصر المسافة من الفيوم إلى القاهرة فكان يحضر إلى أصدقائه بعد ظهر الخميس أسبوعياً . وربما يصادف أن يكون السبت عطلة لأية مناسبة فتزداد مدة بقائه مع صحبه في القاهرة كما يظهر من قصيدة العقاد التي بعث بها إليه يدعوه للحضور لاستغلال إجازة الجمعة والسبت وفيها يقول العقاد :

إن يوم السبت القريب بطالةْ ... فاركب القطر عاجلاً وتعالهْ
شوف تلقى إذا حضرت إلينا ... أكلة حلوة تسيل الريالةْ
" مكروني " الطليان هيفاء بيضا ... كومض الأشعة المختالةْ
وإذا ما الفيوم أبقتك فاقتنع ... ؟؟؟؟ هناك أو بزبالةْ
وسلام على " ديوجين " منا ... فهو نعم الزميل في كل حالةْ

وهـــو أولى مـــن طـــاهر بســـلام أو كتـــاب مزخـــرف أو رســـالةْ

ويكتب إليه مرة يغريه بالحضور يوم الخميس القادم فيقول :

يـــوم الخمـــيس حضـــور وســـــــهرة وســـــــحور

وقـــــد يكـــــون غـــــداء وقـــــد يكـــــون " فطـــــور "

وهكـــــــذا في جديـــــــد كـــــما تـــــدور نـــــدور

إن جئـــــت أهـــــلاً وســـــهلاً أو لا فأنـــــــت تغـــــــور !

وفي رسالة أخرى يهدد العقاد صديقه بأنه إن لم يحضر إليهم يوم الخميس فسوف تتغير نظرتهم إلى شعره وقصصه فيقول :

يـــا جبـــالي قـــل لنـــا هـــل تجـــئ بعـــد ظهـــر الخمـــيس أولا تجـــئ ؟

لـــك شـــعر إن جئـــتَ عـــذبٌ بليـــغ فـــإذا لم تجـــئْ فشـــعر رديء

والروايـــات أنـــت تحســـن فيهـــا فـــإذا لم تجـــئْ فأنـــت تسيـــء !

ولهـــم عنـــك قـــول نـــاس لطـــاف حـــين تـــأتي ، أو لا فقـــول بـــذيء

الجبلاوي في قنا :

وقد شهدت المدة التي قضاها الجبلاوي في قنا مراسلات شعرية من نوع خاص فأكثر تلك المراسلات إما يتعلق بالضغط على موضوع نقله إلى القاهرة ، وإما يتعلق بالجوافة التي اعتاد الجبلاوي أن يبعث بها من قنا إلى صديقه العقاد فكانت تصل إليه في حالة يرثى لها من الضعف والاهتراء ، فيكتب العقاد لصاحبه يقول :

أيهـا الخيتعـور قـد وصـلت جـو ... افـة منـك تشـبه الجوافـة !!
وعـلى الوعـد نحـن بالكتـب شـتى ... والروايـات جمـةً ، والسـلامة
وعليهـا يـا حـظ حفلـة تكريـ ... ـمٍ كعهـد النهـى ، وعهـد السـخافة
فـانتظر في قنـا إذا خفـت يـا حـظ ... وهيهـات أن تفيـد المخافـة

ويصف العقاد الجوافة التي وصلته ذات مرة بأنها (موحوسة) فيكتب إلى صديقه الجبلاوي ليصفه بأنه هو أيضاً (موحوس) فيقول مهدداً :

أنـت - والله - "برضُـهُ" موحـوسُ ... بـل غريـقٌ في نحسـه مغمـوسُ
إن جوافـةً بعثـت بهـا لا ... خـير فيهـا يأيهـا الملحـوسُ
ولعمـري يـا فـارس الكـون إني ... منـك في كـل حالـةٍ مفـروسُ
فـانتظر حينـما تجـئ إلينـا ... كـل خـير تصـبو إليـه النفـوسُ